لولا أن العربية لغة القرآن لكان مصيرها مصير اللاتينية

بقلم الدكتور عبد العزيز مطر
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها
(جامعة الكويت)

ليس من شك فى ان ثمة صلة وثيقة بين الاسلام واللغة التى نزل بها القرآن الكريم وجاء بها الحديث الشريف ، والف بها تراث المسلمين الخالد .

بيد ان هذه الصلة بين الاسلام واللغة العربية لا تصل – فى رأيى – الى درجة التلازم الذى فسر فى الفقرة الايضاحية للاستفتاء بأنه : لولا الاسلام لما تأتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم كله ، كما انه لو لم تكن العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام .

وقد أسست هذا الرأي على أدلة تجمعت لدي ، بعضها يؤكد ان **الصلة بين الاسلام والعربية حقيقة واقعة** ، بينما يدل بعضها على ان **هذه الصلة لا تصل الى درجة التلازم :**

اولا – ادلة الصلة الوثيقة :

1) بفضل الاسلام الذى جاءت دعوته بهذه اللغة، ونزلت بها معجزته البيانية الكبرى ، تجاوزت اللغة العربية حدود شبه جزيرة العرب ، وانطلقت تعم ارجاء العالم ، فقهرت اللغات : الآرامية فى العراق وسوريا ولبنان ، والقبطية فى مصر ، والبربرية فى شمال افريقيا ، والكوشبتية فى شرقى افريقيا . واثرت تأثيرا بالغا فى الفارسية فى ايران ، والتركية فى بلاد المغول ، والقوطية فى الاندلس ، والاردية فى الشمال الغربى من الهند .

وقد انطلقت هذه الانطلاقة الواسعة بالفتوح الاسلامية ، وبالجاليات العربية التى وفدت تدعو الى الاسلام بلغة القرآن . وساعدت على انتشارها **حرص الناس** الذين دخلوا فى دين الله **على تعلم هذه اللغة، ليفهموا القرآن والحديث واصول الدين .**

2) اتى على اللغة العربية حين من الدهر كان المقدر الا تكون فيه شيئا مذكورا لولا ان الاسلام حماها من الضياع فى عهود الاستعمار الذى توالى على الامة العربية فتعمد اهمال هذه اللغة ، وشجع نمو اللهجات المحلية التى بلغت فى كثرتها حدا كاد يلحق اللغة العربية فى تشعبها باللغة اللاتينية التى اصبحت عدة لغات هى الايطالية ، والفرنسية ، والاسبانية ، والبرتغالية ، والرومانية . كان هذا ممكنا بالنسبة للعربية لولا انها لغة القرآن .

3) كان لارتباط اللغة بالاسلام مظهرا آخر هو الاهتمام بتعلم اللغة العربية ، ودرس علومها ، والتأليف فيها ، عبر القرون الطوال ، مما اكسبها قوة ونماء ولقد جعل بعض اللغويين **تعلم هذه اللغة فرضا** على كل متعلق من العلم بالقرآن والحديث بسبب ، يقول اللغوي احمد بن فارس (ت 395 هـ) : « ان **العلم بلغة العرب واجب** على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب ، حتى لا غنى بأحد منهم عنه ، ذلك ان القرآن نازل بلغة العرب ، ورسول

الله (ص) عربى . فمن اراد معرفة ما فى كتاب الله – جل وعز – وما فى سنة رسول الله (ص) من كل كلمة غريبة ، او نظم عجيب ، لم يجد من العلم باللغة بدا »

4) ان تلاوة القرآن، وتفسيره ، وشرح احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاحاديث الدينية ، فى الاذاعة، والتليفزيون ، وفى المواقف والمناسبات الاسلامية ، وحرص علماء المسلمين على استخدام الفصحى فى هذه المجالات ، كل هذا ساعد على تنمية الحس اللغوى بين المسلمين ، وعلى نشر آلاف من المصطلحات والكلمات الاسلامية ، تتخلل لهجات الاميين فيبدو فيها التأثير الدينى ، وتقترب من اللغة الفصحى .

5) وكان الحافز الدينى ، والحرص على **المحافظة على لغة القرآن** ، من اهم الاسباب فى **نشأة لون من التاليف يقاوم لحن العامة** ، تاسيا بالرسول (ص) الذى قال عندما لحن رجل بحضرته : « ارشدوا اخاكم» وكان لهذه المؤلفات الكثيرة اثرها فى تجنب اللحن ونشر الفصيح .

ثانيا – هذه الصلة ليست صلة تلازم :

1) من ادلة ذلك ان عدد المسلمين فى العالم الآن يبلغ 616.336.943 بينما يقل عدد المتكلمين بالعربية عن هذا العدد بكثير جدا . ذلك ان انتشار الاسلام ارتبط بانتشار اللغة بسبب الجاليات العربية التى صاحبت الفتوح الاسلامية ، وبسبب الارتباط بين الدين والدولة ، وان اللغة العربية كانت لغة المنتصر فى الفتح ، وهذا كله ساعد على نشر اللغة العربية .

2) بينما يوجد مسلمون كثيرون لا يعرفون من العربية الا كلمات يوجد كذلك كثيرون من غير المسلمين يجيدون العربية اما دارسين ومؤلفين واما اقليات تعيش فى بيئات عربية .

3) الثابت تاريخا ان الاسلام قد انتشر فى بلاد فارس دون ان تقضي اللغة العربية على اللغة الفارسية، رغم بقاء بلاد الفرس تحت حكم المسلمين امدا طويلا . وربما كان ذلك بسبب انتماء كل من اللغتين الى فصيلة لغوية مختلفة عن الاخرى فالعربية سامية ، والفارسية هندية اوربية .

كذلك لم تقو العربية على ان تقضي على اللغات الاسبانية على الرغم من بقاء الاندلس تحت الحكم العربى نحو سبعة قرون .

4) قد يسبق انتشار الاسلام انتشار اللغة العربية ، كما حدث فى مصر فان انتشار اللغة العربية ظل بطيئا طوال القرن الهجرى الاول **ولم تستخدم الدواوين اللغة العربية الا فى عام 87 هـ.** ويذكر المقريزى ان الخليفة المأمون كان يستعين بمترجم اثناء تنقلاته فى ريف مصر عام 217 هـ اذكانت القبطية ما تزال شائعة .

وهكذا نرى ان بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية علاقة وثيقة ، ولكن هذه العلاقة ليست علاقة سبب او تلازم .